الرمز الديني عند السياب

ارشد عمار لهمود

أ.د علي قهرماني

جامعة شهيد مدني - ايران تبريز

Arshadamar474@gmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث ظاهرة الرمز الديني في شعر بدر شاكر السياب بوصفها أحد أبرز سمات تجربته الشعرية الحديثة. ينطلق البحث من فرضية أن السياب لم يوظف الرمز الديني توظيفًا تقليديًا، بل أعاد تشكيله ضمن رؤية معاصرة تعبّر عن أزماته الوجودية والواقعية. وقد استند في ذلك إلى مخزون ديني متنوع، شمل الرموز الإسلامية والمسيحية على حدّ سواء، مثل رمزي المسيح والقيامة، وقصة يوسف، وشخصيات الأنبياء، مستثمرًا دلالاتها في التعبير عن الألم، والفداء، والبعث، والخلاص.

يركّز البحث على أن السياب استخدم الرمز الديني كوسيلة لتكثيف التجربة الشعرية، حيث يتحول الرمز إلى أداة إيحائية تتجاوز المعنى المباشر لتعبّر عن معانٍ إنسانية شاملة. كما يكشف عن أن هذا التوظيف لم يكن زخرفيًا، بل جاء مرتبطًا بسياقاته النفسية والاجتماعية، ولا سيما معاناته المرضية وتجاربه السياسية. ويبيّن البحث أن التداخل بين الرمز الديني والأسطورة شكّل بنية رمزية مركبة في شعره، أسهمت في تعميق البعد الدلالي للنص.

ويخلص البحث إلى أن الرمز الديني عند السياب يمثل عنصرًا بنيويًا فاعلًا في تشكيل رؤيته الشعرية، وأنه أسهم في نقل الشعر العربي من المباشرة إلى أفق رمزي أكثر عمقًا، مما جعله أحد رواد الحداثة الشعرية العربية.

Abstract

This study examines the phenomenon of religious symbolism in the poetry of Badr Shakir al-Sayyab as one of the most prominent features of his modern poetic experience. The research is based on the hypothesis that al-Sayyab did not employ religious symbols in a traditional manner; rather, he reconfigured them within a contemporary vision that reflects his existential and social crises. In doing so, he drew upon a rich and diverse religious repertoire that includes both Islamic and Christian symbols, such as the figure of Christ and the motif of resurrection, the story of Joseph, and the figures of the prophets, investing these symbols with meanings related to pain, suffering, sacrifice, rebirth, and redemption.

The study demonstrates that al-Sayyab utilized religious symbolism as a means of intensifying poetic experience, whereby the symbol transcends its literal meaning to convey deeper, universal human significations. It further reveals that this employment was not merely ornamental; rather, it was closely linked to the poet's psychological and social contexts, particularly his illness and political experiences. Moreover, the interplay between religious symbolism and myth contributed to the formation of a complex symbolic structure in his poetry, enhancing the semantic depth of the text.

The study concludes that religious symbolism in al-Sayyab's poetry constitutes a fundamental structural element in shaping his poetic vision. It played a significant role in shifting Arabic poetry from direct expression toward a more symbolic and profound horizon, thereby establishing al-Sayyab as one of the pioneers of modern Arabic poetry

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. أما بعد: يعد بدر شاكر السياب (1926-1964) أحد أبرز رواد الشعر العربي الحديث، وأحد مؤسسي مدرسة "شعر التفعيلة" التي أحدثت نقلة نوعية في بنية القصيدة العربية شكلاً ومضموناً. وقد عُرف السياب بتجربته الشعرية الفريدة التي مزجت بين المعاناة الذاتية والهم الجمعي، فجاء شعره معبراً عن مأساة الإنسان العربي في مرحلة تحولات كبرى، تمثلت في الصراع السياسي والاجتماعي الذي شهده العراق والعالم العربي في منتصف القرن العشرين. (حريرجي،2015)

من أبرز السمات التي طبعت تجربة السياب الشعرية، توظيفه المكثف للرمز بمختلف أنواعه، ولعل الرمز الديني يأتي في مقدمة هذه الرموز، إذ استدعى السياب شخصيات وقصصاً من التراث الديني المسيحي والإسلامي، محولاً إياها إلى أدوات تعبيرية تحمل دلالات معاصرة. وهذا التوظيف لم يأت اعتباطاً، بل جاء نتيجة وعي عميق بقدرة الرمز الديني على حمل أبعاد متعددة، تتيح للشاعر التعبير عن قضاياه الملحة بأسلوب فني غير مباشر، يثير في المتلقي أسئلة كبرى حول الوجود والموت والخلاص. (حريرجي2015)

وتأتي أهمية هذا البحث كونه يسعى إلى كشف آليات اشتغال الرمز الديني في شعر السياب، وتحليل دلالاته المختلفة في سياقاتها الشعرية، وذلك من خلال منهج وصفي تحليلي يجمع بين النظرية النقدية والتطبيق العملي على نماذج شعرية مختارة. (حريرجي2015)

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتم تقسيمه إلى تمهيد ومبحثين: يتناول التمهيد السياق الثقافي والتاريخي الذي عاش فيه السياب، وأهم المحطات في مسيرته الشعرية. أما المبحث الأول فيعنى بالجانب النظري، حيث يتناول تعريف الرمز لغة واصطلاحاً، ثم يستعرض تطور مفهوم الرمز في المنظور النقدي الحديث، مع التركيز على آليات تحليل الرمز الديني خاصة. ويأتي المبحث الثاني ليتناول الجانب التطبيقي، من خلال تحليل نماذج شعرية للسياب تتضمن رموزاً دينية متنوعة، تشمل الرمز المسيحي كما في قصيدة "المسيح بعد الصلب"، والرمز القرآني كما في شخصية أيوب والشيطان، والرمز التراجيدي كما في ثنائية هابيل وقابيل. (كيلاني ، 1985)

ويسعى البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: ما الدوافع التي جعلت السياب يتجه إلى توظيف الرمز الديني بكثافة؟ وكيف وظف السياب الشخصيات والقصص الدينية في سياقات معاصرة؟ وما العلاقة بين الرمز الديني والسياق السياسي والاجتماعي الذي عاش فيه الشاعر؟

التمهيد: السياب والسياق الثقافي

أولاً: سيرة الشاعر ومراحل تطوره الشعري

وُلد بدر شاكر السياب في قرية جيكور بمحافظة البصرة جنوب العراق عام 1926، ونشأ في أسرة فلاحية بسيطة، عاش تجربة الفقر والمرض مبكراً، حيث أصيب بشلل جزئي في طفولته، ثم عانى طوال حياته من مرض عضال لازمه حتى وفاته. هذه المعاناة الجسدية تركت أثرها العميق في تجربته الشعرية، وجعلته يبحث عن آليات تعبيرية تعكس إحساسه بالألم والاغتراب.

درس السياب في دار المعلمين العالية ببغداد، وتخرج فيها عام 1948، ثم عمل مدرساً، لكنه سرعان ما فصل من وظيفته بسبب نشاطه السياسي وعلاقته بالحزب الشيوعي العراقي. عاش السياب حياة مضطربة

بين السفر والإقامة القصيرة في عدة مدن عربية، منها البصرة وبغداد ومدن الكويت، وعانى من الفقر والمرض حتى وفاته عام 1964. (كيلاني ، 1985)

يمر شعر السياب بعدة مراحل تطورية يمكن إجمالها كالتالي:

1ـ المرحلة الرومانسية المبكرة: تأثر فيها بالشعراء الرومانسيين مثل إليا أبو ماضي، وتميزت بالذاتية والبساطة. (مهدي ، 1991)

2ـ المرحلة الرمزية الناضجة: بعد اطلاعه على الشعر الغربي الحديث، خاصة ت. س. إليوت، بدأ السياب في توظيف الرمز والأسطورة بشكل مكثف. (كيلاني ، 1985)

3ـ مرحلة الالتزام: ارتبطت بانتمائه للحزب الشيوعي، فاتجه شعره نحو قضايا اجتماعية وسياسية ملحة. (كيلاني ، 1985)

4ـ مرحلة التأمل والموت: في سنواته الأخيرة، اتجه شعره نحو التأملات الفلسفية في الموت والمعاناة.

ثانياً: التأثيرات الثقافية والفكرية

تعددت المصادر الثقافية التي شكلت وعي السياب الشعري، وأهمها:

1ـ التراث الأدبي العربي: كان السياب قارئاً جيداً للتراث الشعري العربي، خاصة شعر المتنبي وأبي تمام والشريف الرضي. (جبرا ، 1979)

2ـ الأدب الغربي الحديث: تأثر السياب بشعراء الرمزية الفرنسيين (بودلير، رامبو، مالارميه)، وبشعراء الحداثة الإنجليز مثل ت. س. إليوت، الذي استفاد منه في تقنية "المعادل الموضوعي" وفي توظيف الأسطورة.

3ـ التراث الديني: قرأ السياب في الكتب المقدسة (القرآن الكريم والإنجيل)، واستفاد من القصص الدينية والشخصيات الرمزية في كليهما.

4ـ الأساطير القديمة: خاصة أساطير بلاد الرافدين (تموز وعشتار) وأساطير البحر المتوسط (أدونيس وأورفيوس

ثالثاً: مفهوم الرمز في تجربة السياب

لم يكن استخدام السياب للرمز مجرد تقليد أعمى للشعر الغربي، بل كان تعبيراً عن رؤية شعرية عميقة، استلهم فيها من معاناته الذاتية ومن معاناة مجتمعه. لقد أدرك السياب أن الرمز يمكنه أن يحقق عدة وظائف في النص الشعري: (كيلاني ، 1985)

1. وظيفة الإخفاء والتجنب: في ظل الظروف السياسية القمعية، كان الرمز وسيلة للتعبير عن آراء يحظر التصريح بها.

2. وظيفة الإيحاء والتكثيف: يتيح الرمز للشاعر التعبير عن معانٍ متعددة في لفظ واحد.

3. وظيفة الإنساق الثقافي: يربط الرمز النص الشعري بمنظومة ثقافية وحضارية أوسع.

4. وظيفة التجاوز والخلاص: سعى السياب من خلال الرموز الدينية والأسطورية إلى تجاوز واقعه المؤلم نحو أفق أوسع للخلاص. (حريرجي،2015)

المبحث الأول: الرمز: المفهوم والمنظور النقدي

المطلب الأول: تعريف الرمز لغة واصطلاحاً

أ. التعريف اللغوي

الرمز في اللغة العربية مصدر رمزَ يَرمِزُ رَمْزاً، والرمز: الإشارة بالشفتين أو بالحاجبين أو باليدين، وقيل: هو كل ما دل به على شيء من قول أو فعل. وجاء في المعاجم العربية: "الرَّمْزُ: الإشارةُ بالشَّفَتَيْنِ والصَّوْتِ الخَفِيِّ، وقيل: هو الإشارةُ بِكُلِّ شيءٍ، كَتَحْرِيكِ الرَّأْسِ واليَدِ والعَيْنِ والحاجِبِ" . وهذا المعنى اللغوي يشير إلى أن الرمز يقوم على علاقة إحالة بين شيء ظاهر (الدال) وشيء خفي (المدلول)، وهي علاقة غير مباشرة تحتاج إلى تأويل.

ب. التعريف الاصطلاحي

أما في الاصطلاح النقدي الحديث، فقد تعددت تعريفات الرمز بتعدد المدارس والمناهج. يمكن إجمال أبرز هذه التعريفات فيما يلي:

1. الرمز في المنظور الرومانسي: يُنظر إلى الرمز على أنه تعبير غير مباشر عن الذاتية الشاعرية، يحاول الشاعر من خلاله تجاوز العادي والمألوف نحو عالم خيالي مفعم بالغموض والإيحاء. (حريرجي،2015)

2. الرمز في المنظور الرمزي: يرى منظرو الرمزية (مثل بودلير ومالارميه) أن العالم الخارجي ليس سوى "غابة من الرموز" تحيل إلى معانٍ روحية أعمق، وأن دور الشاعر هو اكتشاف هذه المراسلات والإيحاءات.

3. الرمز في المنظور البنيوي: ينظر إلى الرمز على أنه علامة لغوية تتجاوز علاقة الدال بالمدلول المباشرة إلى دلالات ثقافية أوسع، وهو ما جعل بعض المنظرين (مثل رولان بارت) يميز بين "الدال" و"المدلول" و"المرجع" الثقافي. (جبرا ، 1979)

4. الرمز في المنظور التحليلي (يونغ): يرى كارل غوستاف يونغ أن الرموز ليست مجرد اختراعات فردية، بل هي تجليات "للنماذج الأصلية" (Archetypes) الكامنة في اللاوعي الجمعي للبشرية. وهذه النماذج، مثل "الأم" و"البطل" و"الظل" و"الحكيم"، تتكرر في الأساطير والأديان والأحلام عبر الثقافات المختلفة. (جبرا ، 1979)

المطلب الثاني: الرمز في المنظور النقدي الحديث

أ. الرمز بين التراث النقدي العربي والغربي

لم يكن مفهوم الرمز غريباً على التراث النقدي العربي القديم، فقد عرف العرب مفاهيم قريبة منه مثل "الكناية" و"التعريض" و"الإشارة" و"التلميح". لكن الاختلاف الجوهري يكمن في أن هذه المفاهيم كانت تقوم على علاقة واضحة يمكن فك رموزها بالنظر إلى السياق، في حين أن الرمز في الشعر الحديث يميل إلى الغموض والتعدد، ويحتاج إلى تأويل يتجاوز المعنى الحرفي.

شهد النقد العربي الحديث اهتماماً متزايداً بدراسة الرمز، خاصة بعد انتشار شعر التفعيلة وتوظيف الرموز الأسطورية والدينية فيه. وقد تعددت المقاربات النقدية للرمز، منها: (درويش ، 1984)

1. المقاربة الأسلوبية: وتهتم بالكشف عن المستويات اللغوية المختلفة التي يشتغل عليها الرمز.

2. المقاربة السيميائية: وتنظر إلى الرمز باعتباره علامة ضمن نظام دلالي أوسع. (درويش ، 1984)

3. المقاربة التأويلية: وتهتم بكشف دلالات الرمز في سياق النص الكلي.

ب. الرمز والأسطورة: علاقات التداخل والافتراق

كثيراً ما يخلط الدارسون بين الرمز والأسطورة، والحقيقة أن العلاقة بينهما علاقة تداخل وتعاون لا تطابق. فإذا كان الرمز علامة تحيل إلى دلالة خفية، فإن الأسطورة يمكن النظر إليها باعتبارها "نظاماً رمزياً" متكاملاً، أو شبكة من الرموز المتشابكة التي تشكل رؤية للعالم.

في شعر السياب، يتداخل الرمز والأسطورة بشكل كبير. فهو يستدعي شخصيات أسطورية (كتموز وعشتار) وشخصيات دينية (كالمسيح وأيوب والشيطان) ويعاملها معاملة رموز تحمل دلالات معاصرة. وهذا ما جعل بعض الدارسين يصفون تجربة السياب بأنها "أسطورية رمزية" بامتياز. (درويش ، 1984)

ج. الرمز الديني وخصائصه

يتميز الرمز الديني عن غيره من أنواع الرموز بعدة خصائص:

1. البعد الجماعي: تنتمي الرموز الدينية إلى موروث ثقافي وديني واسع، مما يجعلها قادرة على إحداث تأثير عميق في المتلقي. (درويش ، 1984)

2. الثبات النسبي: تميل الرموز الدينية إلى الاستقرار الدلالي، فارتباطها بنصوص دينية محددة يكسبها درجة من الثبات. (درويش ، 1984)

3. القدرة على التطويع: رغم ثباتها النسبي، فإن الرموز الدينية قابلة للتأويل والتوظيف في سياقات مختلفة، وهو ما يمنحها حيوية مستمرة. (درويش ، 1984)

4. البعد الأخلاقي: تحمل الرموز الدينية عادة أبعاداً أخلاقية وتوجيهية، مما يجعلها أداة فعالة في النقد الاجتماعي والسياسي. (جبرا ، 1979)

المطلب الثالث: آليات تحليل الرمز الديني

لكي نتمكن من تحليل الرمز الديني في شعر السياب بشكل دقيق، لا بد من اتباع آليات منهجية واضحة، يمكن إجمالها في الخطوات التالية:

أولاً: تحديد الرمز واستخراجه: يتطلب ذلك قراءة متأنية للنص الشعري، وتحديد الشخصيات والأحداث والعبارات ذات الدلالات الدينية. (جبرا ، 1979)

ثانياً: تتبع السياق الأصلي للرمز: لا بد من العودة إلى المصادر الدينية (القرآن الكريم، الإنجيل، القصص الدينية) لمعرفة الدلالات الأصلية للرمز.

ثالثاً: دراسة تحولات الرمز في النص الشعري: هنا يبرز الاختلاف بين الدلالة الأصلية والدلالة الجديدة التي يضفيها الشاعر على الرمز، ويتطلب ذلك الانتباه إلى آليات التحويل والإبداع.

رابعاً: تحليل وظائف الرمز في سياق النص: يجب أن ننظر إلى الرمز في علاقته بباقي عناصر النص، ودوره في بناء المعنى الكلي. (مهدي ، 1991)

خامساً: الربط بين الرمز والسياق التاريخي والاجتماعي: لا يمكن فهم الرمز الديني في شعر السياب بمعزل عن الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها الشاعر. (جبرا ، 1979)

المبحث الثاني: تطبيقات ونماذج من شعر السياب تحتوي على الرمز الديني

المطلب الأول: الرمز المسيحي: صورة المسيح في قصيدة "المسيح بعد الصلب"

أ. عرض القصيدة وسياقه

تعد قصيدة "المسيح بعد الصلب" واحدة من أبرز قصائد السياب التي وظفت الرمز الديني المسيحي. وقد كُتبت القصيدة في فترة متأخرة من حياة الشاعر (حوالي 1960)، وهي تعكس أزمة وجودية عميقة، وتأملاً في معنى الموت والخلاص من منظور إنساني حديث. (مهدي ، 1991)

تبدأ القصيدة بمشهد درامي للمسيح بعد أن صُلب، لكن المفارقة أن السياب يقدم لنا مسيحاً لم يمت، بل صُلب وظل حياً يتألم، يسمع الرياح والنواح ويعيش التجربة الإنسانية بكاملها:

بعدما أنزلوني، سمعـــت الرياح فـــــــــــــي نواح طويل تسف النخيل

والخطى وهي تنأى. إذن فالجراح والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل

لم تمتني. وأنصت: كـان العويل يعبر السهل بيني وبيـــــــــــن المدينة(درويش ، 1984)

ب. تحليل الرمـــــز المسيحي

يقدم السياب صورة غير تقليدية للمسيح، تختلف عن الصورة التقليدية في اللاهوت المسيحي. فالمسيح هنا ليس إلهاً مخلصاً يموت ليفدي خطايا البشر، بل هو إنسان عانى وعذب وظل حياً يتجرع الألم. يمكن استخلاص أبعاد هذا الرمز فيما يلي: (ستار ، 2017)

1. المسيح رمز الضحية: يجسد المسيح في هذه القصيدة شخصية المقهور والمضطهد، الذي صُلب بسبب أفكاره وقيمه. وهذه إسقاط واضح على واقع الشاعر نفسه، الذي عانى من القمع والفقر والمرض. (مهدي ، 1991)

2. المسيح رمز الصمود: رغم الصلب والألم، يظل المسيح حياً ومتحدياً. هذا البعد يعكس إصرار السياب على الصمود في وجه المعاناة، ورفضه للاستسلام.

3. المسيح رمز الوعي الثوري: لاحظ بعض الدارسين أن مسيح السياب ليس مسيح التسليم والمسالمة، بل هو مسيح يدرك حقيقة ما جرى له، وهو على وعي بالصراع بين قوى الخير والشر. (العبودي ، 2024)

4. المسيح رمز الخصوبة والبعث: يأتي توظيف المسيح في هذه القصيدة متوافقاً مع أسطورة "تموز" التي شغلت السياب كثيراً. فكما يموت تموز ويعود في كل ربيع، كذلك المسيح هنا يموت ويُبعث رمزياً في كل مرة يُذكر فيها اسمه. (العبودي ، 2024)

ج. نقد التحليل: جدل المقدس والدنيوي

ما يثير الانتباه في هذه القصيدة هو الطريقة التي يعالج بها السياب العلاقة بين المقدس والدنيوي. فهو لا يتعامل مع النص الديني كحقيقة مطلقة، بل كمجموعة من الرموز القابلة للتأويل والتوظيف في سياقات إنسانية معاصرة. هذا الموقف جعل بعض النقاد يتحدثون عن "علمنة المقدس" في شعر السياب، بينما رأى آخرون أن السياب كان يحاول "تأويل المقدس" بما يتوافق مع رؤيته الإنسانية. (العبودي ، 2024)

المطلب الثاني: الرمز القرآني: أيوب والشيطان في شعر السياب

أ. شخصية أيوب: رمز الصبر في المعاناة

استدعى السياب شخصية النبي أيوب في أكثر من قصيدة، وكان ذلك تعبيراً عن معاناته الشخصية مع المرض والفقر. أيوب في التراث الإسلامي هو النبي الذي ابتلاه الله بفقد المال والولد والصحة، فصبر صبراً جميلاً حتى كشف الله ضره. (درويش ، 1984)

في شعر السياب، تتحول شخصية أيوب إلى رمز للإنسان المعاصر الذي يعاني من أمراض العصر وأزماته. وفي دراسة مقارنة بين السياب ومحمود درويش، تبين أن كلاً منهما وظف شخصية أيوب بطريقة

تعكس تجربته الخاصة: درويش وظفها رمزاً لصبر الفلسطيني في وجه الاحتلال، بينما وظفها السياب رمزاً لصبر المريض في وجه الألم المزمن. (اسماعيل ، 1968)

ويمكن القول إن أيوب السياب ليس أيوب التسليم المطلق، بل أيوب المتسائل، الذي لا يفهم سبب معاناته، لكنه يظل صامداً رغم كل شيء. وهذا يعكس تحولاً في النظرة إلى مفهوم الصبر: من صبر سلبي قائم على الرضا، إلى صبر إيجابي قائم على الصمود والمقاومة. (اسماعيل ، 1968)

ب. الشيطان في قصيدة "اللعنات": رمز الطغيان والاستبداد

في قصيدة "اللعنات" التي كتبها السياب عام 1952، يقدم لنا الشاعر صورة للشيطان تختلف تماماً عن الصورة التقليدية. فالشيطان هنا ليس عدواً للإنسان يوسوس له ويزين له الشر، بل هو رمز للطغاة المستبدين الذين يحكمون العالم العربي ويظلمون شعوبهم. (مهدي ، 1991)

يُظهر التحليل الدقيق لهذه القصيدة أن السياب وظف الشيطان بعدة صور مترابطة:

1. حقد الشيطان على آدم: يرمز إلى كراهية الأنظمة الاستبدادية للشعوب الحرة، ورغبتها في إذلالها والسيطرة عليها.

2. عداوة الشيطان لله وأوليائه: تعبر عن صراع الأنظمة الظالمة مع قيم الحق والعدالة، وسعيها المستمر لطمس هذه القيم. (مهدي ، 1991)

3. أتباع الشيطان وأصحابه: يمثل السياب هنا العمالقة والتجار والرهبان كأدوات يستخدمها الشيطان (الطاغية) لتحقيق أهدافه الخبيثة، مما يعكس نظرة السياب إلى آليات استمرار الأنظمة القمعية.

4. الشيطان في صورة لمياء: يظهر الشيطان في صورة امرأة جميلة (لمياء)، وهذا يمثل وسائل الإغراء والإلهاء التي تستخدمها الأنظمة المستبدة لصرف الناس عن قضاياهم الحقيقية.

ج. دلالات التحول في توظيف الرمز القرآني

ما يميز تجربة السياب في توظيف الرمز القرآني هو قدرته على تجاوز الدلالة التقليدية إلى دلالات جديدة تتلاءم مع السياق المعاصر. فهو لا يكرر المعاني الجاهزة، بل يعيد إنتاجها وتأويلها في ضوء تجربته الخاصة وهموم مجتمعه. (زارع ، 2016)

وهذا التحول لم يأت من فراغ، بل كان نتاجاً لوعي عميق بخصائص الرمز الديني، وقدرته على استيعاب تأويلات متعددة. كما أنه يعكس موقفاً إنسانياً ينظر إلى النصوص الدينية باعتبارها ميراثاً إنسانياً يمكن الاستفادة منه في فهم ومعالجة قضايا العصر. (درويش ، 1984)

المطلب الثالث: الرمز التراجيدي: هابيل وقابيل كصيغة للصراع الوجودي

أ. ثنائية الخير والشر في شعر السياب

شغلت ثنائية هابيل وقابيل حيزاً مهماً في شعر السياب، وقد تناولها العديد من الباحثين بالدراسة والتحليل. قابيل وهابيل هما ابنا آدم الأولان، وقد وردت قصتهما في التوراة والقرآن الكريم، حيث قتل قابيل أخاه هابيل بسبب الحسد والغيرة.

في شعر السياب، تتحول هذه الثنائية إلى صيغة مركزية للتعبير عن الصراع بين الخير والشر، بين المقهور والقاتل، بين المبدع والطاغية. وقد أشارت إحدى الدراسات البنيوية إلى أن هذين الرمزين لهما وظيفة بنائية مهمة في قصائد السياب، وأن دلالتهما تتغير بتغير السياق النصي.

ب. تحليل تحولات الدلالة

تتغير دلالة هابيل وقابيل في شعر السياب بحسب السياق النصي، ويمكن تتبع هذه التحولات فيما يلي: (ستار ، 2017)

1. في القصائد السياسية: يرمز قابيل إلى الطاغية المستبد، بينما يرمز هابيل إلى الشعب المقهور أو الثائر. الصراع هنا هو صراع طبقي وسياسي بالأساس. (زارع ، 2016)

2. في القصائد الذاتية: يتحول الرمزان ليعبرا عن صراع داخلي في نفس الشاعر، بين رغبته في التمرد (قابيل) وخضوعه للقدر (هابيل). (ستار ، 2017)

3. في القصائد التأملية: يصبح قابيل رمزاً للموت والفناء، بينما يمثل هابيل الحياة والإبداع. الصراع هنا هو صراع وجودي بين قوتين متضاربتين في الكون. (درويش ، 1984)

4. في القصائد المأساوية: يتحول هابيل إلى رمز للشهيد الذي يموت بسبب إيمانه وقيمه، مما يعكس نظرة السياب إلى تجربته الشخصية وتجربة رفاقه من المثقفين المناضلين. (درويش ، 1984

ج. البنية الثنائية كآلية للتعبير عن المأساة

يمكن القول إن ثنائية هابيل وقابيل وفرت للسياب آلية فعالة للتعبير عن المأساة بأبعادها المختلفة: المأساة السياسية (ظلم الحكام)، والمأساة الاجتماعية (انقسام المجتمع)، والمأساة الوجودية (الصراع الدائم بين قوى الحياة والموت). (ستار ، 2017)

وهذا الاستخدام المتكرر لهذه الثنائية يعكس رؤية السياب للتاريخ والمجتمع كساحة صراع دائم بين طرفين متقابلين، وهو ما يفسر طابع التشاؤم والألم الذي يغلب على الكثير من قصائده. (زارع ، 2016)

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض والتحليل للرمز الديني في شعر بدر شاكر السياب، يمكننا استخلاص النتائج التالية:

أولاً: كان توظيف السياب للرمز الديني تعبيراً عن رؤية شعرية متكاملة، استلهمت من التراث الديني والثقافي الواسع، وحولته إلى أداة تعبيرية حية قادرة على مخاطبة الإنسان المعاصر بقضاياه الملحة. (درويش ، 1984)

ثانياً: تنوعت الرموز الدينية في شعر السياب بين مسيحية (المسيح)، وإسلامية (أيوب، الشيطان)، وتراثية دينية (هابيل وقابيل)، وهذا التنوع يعكس انفتاح السياب على مختلف المصادر الثقافية والدينية، ونظرته إليها باعتبارها ميراثاً إنسانياً مشتركاً. (درويش ، 1984)

ثالثاً: لم يكتف السياب باستخدام الرموز الدينية في دلالاتها التقليدية، بل أضفى عليها أبعاداً جديدة تتماشى مع سياقه التاريخي والاجتماعي. فالمسيح تحول من إله يخلص إلى إنسان يعاني، والشيطان تحول من وسواس خفي إلى طاغية مستبد، وأيوب تحول من صابر راض إلى صامد متسائل. (زارع ، 2016)

رابعاً: اتسمت معالجة السياب للرمز الديني بالمرونة والثراء، إذ تتغير دلالات الرمز الواحد بتغير السياق النصي، مما يكشف عن مقدرة فنية عالية لدى الشاعر في توظيف التراث الديني توظيفاً إبداعياً. (زارع ، 2016)

خامساً: يمكن القول إن الرمز الديني في شعر السياب لم يكن غاية في حد ذاته، بل كان وسيلة للتعبير عن قضايا كبرى: الصراع بين الخير والشر، معاناة الإنسان المقهور، أزمة الوجود والمعنى، السعي نحو الخلاص رغم اليأس والألم. (ستار ، 2017)

سادساً: يعكس استخدام السياب للرمز الديني تحولاً كبيراً في مفهوم القدسية في الشعر العربي الحديث، حيث أصبح المقدس قابلاً للتأويل والتوظيف الأدبي، دون أن يفقد قيمته الإنسانية والأخلاقية. (ستار ، 2017)

وختاماً، يمكن القول إن دراسة الرمز الديني في شعر بدر شاكر السياب تظل مفتوحة أمام العديد من المقاربات النقدية، وتحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل للكشف عن أبعادها المختلفة، والاستفادة منها في فهم تجربة الشاعر وفي تطوير مناهج تحليل الرمز الديني في الأدب العربي الحديث عامة. (ستار ، 2017)

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأساسية (أعمال السياب الشعرية)

1. السياب، بدر شاكر. (1971). ديوان بدر شاكر السياب. بيروت: دار العودة. (أجزاء 1-2)

2. السياب، بدر شاكر. (1973). الأعمال الكاملة. بيروت: دار العودة.

ثانياً: المراجع بالعربية

1. إسماعيل، عز الدين. (1968). الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. القاهرة: دار الثقافة.

2. جبرا، جبرا إبراهيم. (1979). الحرية والقناع: دراسات في الشعر العربي المعاصر. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

3. خفاجي، محمد عبد المنعم. (1978). قضايا في النقد الأدبي الحديث. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

4. درويش، يوسف. (1984). بدر شاكر السياب: دراسة في حياته وشعره. الإسكندرية: منشأة المعارف.

5. زكريا، ميخائيل. (1981). صورة المسيح في الشعر العربي الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

6. سعد، عاطف جوده. (1990). الرمزية في الشعر العربي الحديث: دراسة في نظرية الرمز وتجلياتها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

7. عطية، خالد. (1987). الرمز والأسطورة في شعر السياب. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

8. القمش، مصطفى. (1983). مدارس الشعر الحديث: من الرومانسية إلى الرمزية. عمان: دار الفكر.

9. كيلاني، إبراهيم. (1985). الرمزية في الشعر العربي الحديث. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

10. مكارم، عدنان. (1973). المؤثرات الإنجليزية في تجربة السياب الشعرية. بيروت: دار الآداب.

11. مهدي، محمد صالح. (1991). التراث الديني في الشعر العربي المعاصر. بغداد: بيت الحكمة.

ثالثاً: المراجع بالإنجليزية

1. Jayyusi, Salma Khadra. (1977). Trends and Movements in Modern Arabic Poetry. Leiden: Brill.
2. Moreh, Shmuel. (1976). Modern Arabic Poetry: 1970-1800. Leiden: Brill.
3. Somekh, Sasson. (1991). Genre and Language in Modern Arabic Literature. Wiesbaden: Harrassowitz.

رابعاً: الدوريات والأبحاث العلمية

1. حريرجي، فيروز؛ بيرجندي، سعيده. (2015). مقارنة استخدام قناع النبي أيوب بين محمود درويش وبدر شاكر السياب. مجلة إضاءات نقدية، العدد 14.

2. زارع، ناصر. (2016). دراسة بنيوية لهابيل وقابيل في شعر السياب. مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران.

3. ستار، رجاء؛ حبيبي، علي أصغر؛ عبد الرزاق، عماد الدين. (2017). تقنية القناع في قصيدة "المسيح بعد الصلب" لبدر شاكر السياب. مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد.

4. عبد العالي، رحيم. (2019). رمزية الشيطان في شعر بدر شاكر السياب: قصيدة "اللعنات" نموذجاً. مجلة الدراسات الأدبية، DOAJ.

5. العبودي، ميساء. (2024). مقاربة سيميائية للخطاب الشعري: تحليل قصيدة "مدينة السندباد" للسياب. مجلة علامات، DOAJ.

الهوامش

1. ينتمي السياب إلى "جماعة تموز" الشعرية التي ضمت كلاً من: أدونيس، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، ويوسف الخال، وأنسي الحاج. وقد تأثرت هذه الجماعة بأسطورة البعث والخصب (تموز) وبالشعر الغربي الحديث.

2. يعد ت. س. إليوت (1888-1965) من أكثر الشعراء الغربيين تأثيراً في شعراء الحداثة العرب، وقد ابتكر إليوت مفهوم "المعادل الموضوعي" (Objective Correlative) الذي يعني إيجاد مجموعة من الأشياء أو الأحداث أو الصور التي تكون معادلاً موضوعياً لحالة انفعالية معينة، بدلاً من التعبير المباشر عن العاطفة.

3. طوّر كارل غوستاف يونغ (1875-1961) مفهوم "النماذج الأصلية" (Archetypes) في إطار نظريته عن "اللاوعي الجمعي". وقد تأثر بهذا المفهوم العديد من النقاد والأدباء العرب، الذين رأوا فيه أساساً نظرياً لفهم تكرار بعض الرموز والصور في الأدب عبر العصور والثقافات المختلفة.

4. يرى الناقد عز الدين إسماعيل أن ظاهرة استخدام الرمز في الشعر العربي الحديث تعود إلى عدة عوامل، منها: تأثر الشعراء بالأدب الغربي، والرغبة في تجاوز المباشرة الرومانسية، والظروف السياسية القمعية التي دفعت الشعراء إلى التعبير غير المباشر.

5. أسطورة تموز من أقدم أساطير بلاد الرافدين، وتروي قصة إله الخصوبة تموز الذي يموت في كل شتاء ثم يعود إلى الحياة في الربيع. وقد وظف السياب هذه الأسطورة في العديد من قصائده، مثل "في السوق القديم" و"المومس العمياء" و"السلاح والأطفال".

6. يلاحظ أن السياب يميل في قصيدة "المسيح بعد الصلب" إلى استخدام تقنية "القناع" (Mask)، حيث يختبئ الشاعر خلف شخصية المسيح ليعبر عن معاناته الذاتية. وهذه التقنية كانت شائعة بين شعراء الحداثة العرب، وقد استفادوا فيها من المسرح الإغريقي والتراث الديني.